



الفصل الثالث

الكناية النفسية

الفصل الثالث

الكناية النفسية

تتحدد الغاية الأساسية من دراسة الكناية النفسية في الوقوف على الإشارات الوجدانية والمشاعر النفسية التي تجسدها الكناية بالتصوير الفني المؤثر. والتصوير هو الأداة الشائعة في أسلوب القرآن، فهو يعبر: "بالصورة المحسنة المتخيلة عن المعنى الذهني، والحالة النفسية، وعن الأحداث المدحوس، والمشهد المنظور، وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية، ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمتدحها الحياة الشاذة، أو الحركة المتجددة، فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة، وإذا الحالة النفسية مجسمة مرئية، أما الحوادث والمشاهد، والقصص والمناظر، فيوردها شاذة حاضرة، فيها الحياة، وفيها الحركة، فإذا أضاف إليها الحوار، فقد استوت لها كل عناصر التخيل" (١).

والكناية القرآنية لا تقف في معانيها ودلالاتها عند التصوير الحسي، وإنما يوحى التصوير فيها بتضاعف دلالي معنوي ونفسي مؤثر يقرب الأفكار والمعاني إلى الحس والوجدان فتتفاعل به النفس انفعالاً من شأنه أن يحدث استجابة نفسية معينة في المستلقي. فالكناية القرآنية تخرج فيها المعنويات والمجردات والانفعالات النفسية باللباس الحسي الذي يكون تأثيره في النفس والذهن أعمق من المجردات، وفي ذلك يقول الرازي: "إلف النفس مع الحسيات أتم من إلفها مع العقلية فإذا ذكرت المعنى العقلي الجلي ثم عبقته بالتشثيل الحسي فكأنه قد نقلت النفس من الغريب إلى القريب" (٢).

فنقل المعاني في صورة حسية يزيد قوة وتأثيراً، وهذا ما نلاحظه مع الكناية النفسية في القرآن الكريم إذ تظهر بالتصوير الحسي دخائل النفوس، والمشاعر الباطنة، والانفعالات النفسية والخلجات الشعورية في حركات حسية نابضة بالحياة ترمم نموذجاً جاء بشرياً بكل

(١) التصوير الفني في القرآن، ص ٣٢.

(٢) نهلية الإيجاز في دراسة الإعجاز، ص ١٠٨، وينظر: تفسير التحرير والتوير: ٩ / ٢٦٨ - الكتاب الثاني ج: ١٠ / ٢٥.

عواطفه ومشاعره وانفعالاته المختلفة من ندم وحسرة وغبط وحقد وحسد، وجحود وإعراض وهزيمة، وخوف وهلع وفزع، واحتقار واستهانة، وفرح ومسرّة وطمانينة تعرض كل هذه المعاني النفسية في سياقات مختلفة وأحوال متباينة في الحياة الدنيا في مواقف متنوعة، وفي الآخرة في بعض مشاهد يوم القيامة المروعة..

فالكناية القرآنية أسلوب تصويري من أساليب التصوير الفني يعمل على إثارة الانفعالات الوجدانية، وتغذية الخيال بالصور والمعاني والظلال وهو يعرض تلك المشاهد المتنوعة في طريقة لا نجدها بالأسلوب الذهني التجريدي، إذ إنّ الأسلوب الذهني يعرض المعاني والأفكار في طريقة "تخاطب الذهن والوعي، وتصل إليهما مجردة من ظلالها الجميلة، وفي الطريقة التصويرية يخاطب الحس والوجدان، وتصل إلى النفس من منافذ شتى: من الحس عن طريق الحواس، ومن الوجدان المنفعل بالأصدا والأضواء. ويكون الذهن منفذاً واحداً من منافذها الكثيرة إلى النفس لا منفذها المفرد الوحيد" (١).

لذلك سيعنى هذا الفصل ببيان الأثر النفسي الكامن في الكناية القرآنية في سياقاتها وموضوعاتها التي صورتها.

وستعتمد إلى تناول الكنايات القرآنية النفسية كل كناية على أفراد، ومن ثمّ حلول إبراز الآثار النفسية التي انطوت عليها بوصفها أحد الأساليب الفنية البارزة في القرآن.

عض الأنامل:

وردت هذه الكناية في سياق توبيخ المؤمنين على موالاتهم لمنافقي أهل الكتاب الذين يضمرون الحقد والبغضاء لهم، كما يجسده التعبير القرآني بالتصوير الكناهي في قوله - تعالى -: ﴿ هَآأَنَآ أَؤَآءُ مُّحِبُّوْكُمْ وَلَا مُّحِبُّوْكُمْ وَتَوَمَّنُوْا بِالْأَكْثَرِ عَلَيْهِمْ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَمَّاوُكُمْ الْآنَآمِلُ مِنَ الْغَيْْظِ قُلْ مُؤْمِنُوْا بِعَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيْمٌ بِذَاتِ الصُّدُوْرِ ﴾ (٢).

الكناية: ﴿ عَمَّاوُكُمْ الْآنَآمِلُ مِنَ الْغَيْْظِ ﴾ تعبير موحٍ موجز يجسد تلك الانفعالات النفسية لهؤلاء المنافقين بهذه الحركة المادية المتفعلة، وهي عض أطراف الأصابع (الأنامل) إذا

(١) مشاهد القيامة في القرآن، ص ٨ - ٩.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١١٦.

(*) نقصد بالحركة الكنائية، الحركة المادية المرئية في التعبير الكناهي سواء أكانت باليد أم بالراس أم بالعين أم غير ذلك من أعضاء جسم الإنسان، وهي كناية لأنها تنطوي على معنى مكنى عنه هو المقصود.

خلا بعضهم لبعض، وهو المعنى الظاهر الذي تدل عليه هذه الحركة الكنازية^(١)، إلا أن هذا المعنى ليس هو المقصود لذاته، وإنما المقصود ما يرتبط بهذه الحركة ويلزمها من مشاعر وانفعالات هؤلاء المنافقين تجاه المؤمنين وهو المعنى المكنى عنه بهذه الحركة. قال أبو حيان: "يوصف المغناظ والنادم بعض الأنامل"^(٢)، وسياق الكناية في الآية يدل على الحنق والغيط: ﴿عَسَوْا عَلَيْكُمْ الْآنَ مِنْ الْغَيْظِ﴾ فالكناية تعبیر عن ذلك الانفعال النفسي وهو شدة الغيط، فضلاً عن التأسف والندم عما يفوتهم من إيذاء المؤمنين. وشدة الغيط التي تنتابهم حنقاً وحسداً يعمقه التعبير ﴿قُلْ مُؤْمِنُوا بِغَيْظِكُمْ﴾ لأن فعل الأمر ﴿مُؤْمِنُوا﴾ هو مجاز في دلالاته يراد منه الدعاء وهو مؤتهم بغيطهم. قال الزمخشري: "دعاء عليهم بأن يزداد غيظهم حتى يهلكوا به والمراد بزيادة الغيظ زيادة ما يغيطهم من قوة الاسلام وعز أهلها وما لهم في ذلك من الذل والخزي والتبار"^(٣). وهذا إيحاء بشدة الغيظ الذي يعدل في نفوسهم فيسلمهم إلى الهلاك والموت، وفي هذا تطييب لنفوس المؤمنين وبعث الرجاء فيها والاستبشار بوعد الله أن يهلك المنافقون غيظاً باعزاز الاسلام وإذلالهم به^(٤).

وإذا كان الله ﷻ يكشف غيظهم وحقدهم وحسدهم بذلك الكناية الحركية فهي ظاهرة لعين المؤمنين، فإن الكناية التي انتهت بها الآية: ﴿بَذَاتِ الصُّدُورِ﴾ هي مكشوفة لله ﷻ كذلك. وذات الصدور كناية عن الأسرار الخفية المصاحبة للصدور اللازمة لها لا تبارحها. وهي كناية تتكرر في مواضع أخرى من القرآن^(٥)، وهي هنا تشير إلى معانٍ تتناسب مع السياق فيكشفها في النور يطلع عليها المؤمنون. جاء في تفسيرها: "فهو يعلم ما تصم صدوركم من شعور الغيظ والبغضاء وموجدة الحق والحسد فكيف يخفى عليه ما تقولون في خلواتكم وما يبيده بعضكم لبعض من ذلك. ويعلم كذلك كما تنطوي عليه صدورنا معشر المؤمنين من حب الخير والنصح لكم"^(٦).

(١) البحر المحیط: ٣ / ٤١. وينظر: الكشف: ١ / ٤٥٩.

(٢) الكشف: ١ / ٤٥٩.

(٣) ينظر: الكشف: ١ / ٤٥٩.

(٤) ينظر: سور آل عمران، الآية: ١٥٤، والمائدة، الآية: ٧، والأنفال، الآية: ٤٣، وهود، الآية: ٥٥، ولقمان، الآية: ٢٣، وقاطر، الآية: ٣٨، والزمر، الآية: ٧٧، والشورى، الآية: ٢٤، الحديد، الآية: ٦، والتغابن، الآية: ٤، والملك، الآية: ١٣.

(٥) تفسير المنار: ٤ / ٩١.

وبذلك تصور هذه الكناية، فضلاً عن كناية (عض الأنامل) مشاعرهم الباطنة، وانفعالاتهم الظاهرة بتلك الحركة المنفعلة فتزيدهم ألماً وغيظاً، وهي تتكشف في النور يطلع عليها عباد الله المؤمنون فيزدادوا استبشاراً بوعد الله بأعزازهم واهلاك أعدائهم غيظاً وذللاً.

عض اليبدين:

ترد هذه الكناية في مشهد من مشاهد يوم القيامة في قوله تعالى: ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْغَنِيُّ الرَّمَّتَنُ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴿١﴾ وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْسَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢﴾ يَتَوَلَّى يَتْنِي لَرَأَيْتُنِي لَمْ أَخَذْ فَلَأَنَا غَلِيلاً ﴿٣﴾﴾ (١)

الصورة الكنائية: ﴿يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ﴾ تكشف عن الحالة النفسية المنفعلة للكافر الظالم في يوم القيامة حتى يعاين عذابه ومصيره. وبين معنى هذه الكناية الذي تدل عليه ظاهرياً في حركتها المنفعلة (عض اليبدين)، وبين المعنى المكنى عنه المراد وهو ندم الظالم وتدسره علاقة تلازم وارتباط. قال الزمخشري: "عض اليبدين والأنامل، والسقوط في اليدكنيات عن الغيظ والحسرة، لأنها من روادقها، فيذكر الرادفة ويدل بها على المردوف، فيرتفع الكلام به في طبقة الفصاحة ويجد السامع عنده في نفسه من الروعة والاستحسان ما لا يجده عند لفظ المكنى عنه" (٢).

والكناية في سياقها الذي وردت فيه أنسب وأدق في تصوير الحالة النفسية التي فيها الظالم في موقفه العسير من أي كناية أخرى مما ذكره الزمخشري كعض الأنامل مثلاً التي تشترك في إيحائها عن الندم في حركتها وصورتها مع كناية (عض اليبدين)، وذلك لأن موقف الظالم هنا في مشهد من مشاهد يوم القيامة، وهو موقف مروع عاصيب يعاين فيه الظالم عقابه ويستيقن بما كذب من قبل. فالتعبير عن حالته النفسية وتحسيدها بكناية عض اليبدين توحى بذلك الانفعال الشديد المضطرب وهذا يناسبه الحركة الغليظة المصورة للمعنى النفسي المقصود، فهو لا تكفيه يد واحدة يعص عليها، إنما هو يداول بين هذه وذلك، أو يجمع بينهما لشدة ما يعانيه من الندم المتمثل في عضه على اليبدين فتكون رمزاً مناسباً لحالته النفسية فتجسمها تجسماً (٣) وهو معنى يتعمق بأسلوب التمني الذي يصاحبه: ﴿

(١) سورة الفرقان، الآيات: ٢٦-٢٨.

(٢) الكشف: ٢/ ٢١٨.

(٣) ينظر: في ظلال القرآن: ٦/ ١٥٦.

يَنْتَقِي أَنْتَقِدْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَيِّكًا ﴿١﴾ إذ نحس اللفظة المكروبة في هذا التمني وكيف تتعلق نفس الظالم بما فات، وكيف هيا لهذه الصرخة الملهية بهذا الصوت المنبه بقوله (يا) وهي دعوة البعيد الذي لا يتحقق فيصبح حلمًا يتمناه. ثم تتصاعد هذه الصرخة في حديثها وألمها بقوله: ﴿يَنْتَقِي لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فَلَانًا خَلِيلًا﴾ وذلك لأن الندم هناك على أنه لم يتخذ سبيل الذين آمنوا مساراً له، والندم هنا على أنه اتخذ سبيل المضلين، وهو ليس رفضاً لسبيل الذين آمنوا فحسب وإنما هو فوق ذلك معاندة له وذهاب في الوجه المقابل ^(١)، وقوله ﴿يَنْتَقِي﴾ ينادي فيه ويلته يعني هلكنه كما قال الزمخشري يقول لها تعالى فهذا أوانك ^(٢)، وفلان كناية عن كل من أطيع بمعصية وارضى بإسقاط الله ^(٣)، وقال الزمخشري: "فكل من اتخذ من المضلين خليلاً كان لخليله اسم علم لا محالة، فجعله كناية عنه" ^(٤)، فهي تشمل كل صاحب سوء يصد عن سبيل الرسول ويضل عن ذكر الله.

وبذلك يتجلى من خلال هذا المشهد القرآني فضلاً عن الكناية "عض اليدين" صورة نفسية بالغة التأثير تجسدها الانفعالات الظاهرة بحركاتها المضطربة الصاندة من الظالم في ذلك الموقف العصيب.

ويلاحظ على هذا المشهد، مشهد الظالم يعرض على يديه من الندم التطويل في عرضه حتى يَحْتَلِّ للأسامع أنه لن ينتهي، وذلك زيادة في عذاب الظالم تدماً وتحسراً من جهة، ولزيادة تأثير المشهد في المتلقي ^(٥) من جهة أخرى.

تقليب الكفين:

وردت هذه الكناية في سياق قصة الرجلين، جعل الله لأحدهما جذتين فتكبر على الآخر واغتر بما عنده من الخير والنعيم ولم يؤمن بربه الذي وهبه هذه النعمة، فدمر الله جنّيته، وعصف بزروعها وثمارها، فأصبحت أثراً بعد عين، وذلك في قوله -تعالى-:

(١) ينظر: دلالات التراكيب، لم. محمد أبو موسى، ص ٢٠٩.

(٢) ينظر: الكشف: ٢١٨ / ٣.

(٣) تأويل مشكل القرآن، ص ٢٦٢.

(٤) الكشف: ٢١٨ / ٣.

(٥) ينظر: مشاهد القيامة في القرآن، ص ٩٩.

﴿وَلِحِيطَ بِشَرِّهِ فَأَصْبَحَ يَقْلِبُ كَفَيْهِ عَلَى مَا أَتَفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا بَنِيَّ لَمَّا أَشْرَكْتُمْ بِيَّ لَعْنًا صَاحِبُهُ﴾ (١)

الصورة الكنائية: ﴿فَأَصْبَحَ يَقْلِبُ كَفَيْهِ﴾ مثبتة في معناها عن الاستعارة المكذبة ﴿وَلِحِيطَ بِشَرِّهِ﴾ ومتصلة بها، لأنها تجسيد بالحركة للحالة النفسية المتأثرة بتدمير الجنين الذي صورته الاستعارة بقوتها التعبيرية، فقد استعار الاحاطة " وأصله من أحاط به العدو، لأنه إذا أحاط به فقد ملكه واستولى عليه " (٢) ثم حذف المستعار منه (العدو) وأبقى شيئاً من لوازمه وهي الاحاطة على سبيل الاستعارة وفي ذلك تعميق لمعنى تدمير الجنين لأنها احاطة أنت على شرها وهو أنفس ما يكون في الجنين. ثم يتصاعد مشهد الموت في تأثيره بالكناية ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ (٣)، أي: " مهشمة محطمة قد سقطت السقوف على الجدران فأصبحت خراباً بيباً " (٤) فهي صورة كنائية توحى بالتحطيم والموت. وصاحبها يقلب كفيه ظهراً لبطن إشارة لذلك الاحساس النفسي الذي انتابه بعد البطر والاستكبار وهو الندم والتحسر على ضياع ما أتفق فيها من مال وجهده، فعبر باللازم وهو تقليب الكفين وأراد الملزوم وهو الندم والحسرة (٥) فتقلب الكفين أصبح عنواناً ورماً لهذا المعنى النفسي، وفي الكناية إحياء لطيف يناسب السياق والحالة النفسية يتمثل في حركتها التي توحى بفراغ الكفين بعد قبضهما على شيء، أي غياب الشيء بعد حضوره، وكأن تقليبهما إعلان عن هذا، فضلاً عن الندم والتحسر عليه. كما تكشف هذه الصورة الكنائية من الجانب النفسي الضعيف في شخصية هذا النمط من البشر المشحونة بالقيم المادية باعتداده على غير الله، وترسم التحول الداخلي في هذه الشخصية من غرور النجاح إلى الشقاء والافلاس والضعف (٥).

(١) سورة الكهف، الآية: ٤٧.

(٢) الكشف: ٢ / ٥٦٥. وينظر: الاستعارة في القرآن الكريم، ص ١٢٥.

(٣) تتكرر هذه الكناية في موضعين آخرين في القرآن، ينظر: سورة البقرة، الآية: ٢٥٩، وسورة الحج، الآية: ٣٤٥.

(٤) صفوة التفاسير: ٢ / ١٩٣.

(٥) ينظر: القرآن والصورة البلاغية، ص ١٦٩. وينظر: القرآن اعجازه وبلاغته، ص ٢٢٠.

(٥) ينظر: التصوير الفني في القرآن، ص ٤٧. وينظر: البنى والدلالات في القصص القرآني، ص ٣٢٥.

السقوط في اليد:

وردت هذه الكناية في سياق عبادة بني اسرائيل للعجل، قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّهُمْ عِجْلًا جَسَداً لَّهُم خُوارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يَمُوتُ لَهُمْ أَيْدِيهِمْ سَبِيلًا أَتُخَذُونَ وَكَانُوا عَلَيْهِمْ عَدُوًّا ۖ وَكَاسُطُوا فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَتَغْفِرْ لَنَا لَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۝﴾^(١)

﴿سُطُوا فِي أَيْدِيهِمْ﴾ صورة كنائية حركية تشير إلى شدة الندم والحسرة على عبادتهم العجل. قال الزمخشري: ﴿وَكَا سُطُوا فِي أَيْدِيهِمْ﴾ ولما اشتد ندمهم وحسرتهم على عبادة العجل، لأن من شأن من اشتد ندمه وحسرتة أن يعصّ يده غمّاً، فتصير يده مسقوطة فيها لأن فاه قد وقع فيها. و﴿سُطُوا﴾ مسند إلى ﴿فِي أَيْدِيهِمْ﴾ وهو باب من الكناية^(٢) أي ندموا اشتد الندم فسقوط الأيدي لازم له، فعبر باللازم وأراد الملزوم.

فالكناية تصوير لتلك الحالة النفسية النادمة المتدسرة، يخرجها في صورة تتملأها العين ويتأثر بها الحس، وكان الندم يسقط في أيديهم انعكاساً للنفس الممتلئة منه، وهذه الكناية وإن كانت تشترك مع غيرها من الكنایات التصويرية التي تشير إلى الندم والتحسر، إلا أن فيها إحياء لطيفاً يناسب سياقها، لا تعبر عنه كناية أخرى. فالسياق سياق عبادة العجل والاشراك به، ومادة الكناية ﴿سُطُوا﴾ توحى بمعناها الأصلي، وهو السقوط من أعلى إلى أسفل، جاء في أساس البلاغة: "سقط من الجبل، وسقط الشيء من يده. وهذا مسقط السوط. وهذه مساقط الغيث ومواقعه"^(٣)، فالكناية وإن كانت تعني في دلالتها الرئيسية السقوط النفسي المتمثل في الندم والتحسر والذي يتجسد في صورة حسية إلا أن فيها إحياء السقوط لآلههم المزعوم (العجل) من أعلى إلى أسفل في نفوسهم وفي واقعهم، وفي ذلك تتجلى السخرية منهم ومن إلههم الذي لا يملك حياة ولا هداية.

وبذلك فإن الكناية تؤدي المعنى المراد خير أداء في موضعها الذي تشكلت فيه وتوحي بمعان إضافية مع السياق والهدف الذي يقصد إليه القرآن.

(١) سورة الأعراف، الآيات: ١٤٨-١٤٩.

(٢) الكشاف: ٢ / ١٢٦، وينظر: القرآن إعجازه وبلاغته، ص ٢٠٠-٢٢١، وينظر: المعجزة الكبرى القرآن، محمد أبو زهرة، ص ٢٤١.

(٣) ص ٢١٣ ﴿سُطُوا﴾.

ردة الأيدي في الأفواه:

ورئت هذه الكناية في قوله - تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا بِالَّذِينَ آمَنُوا﴾ (١) وعكروا وشمذوا والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم في أفواههم وقالوا إنا كفترا بما أرسلتم به وإننا لنفي شريكاً مآ تدعوننا إليه مريباً (٢)

الكناية المصورة للمعنى في حركتها المادية الغليظة ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ فيها سعان وإحاعات متعددة. ومن هذه المعاني ما يورده الزمخشري في تفسير: ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ فعضوها غيظاً وضجراً ممّا جاءت به الرسل، كقوله: ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ (٣) أو ضحكاً واستهزاء كمن غلبه الضحك فوضع يده على فيه، أو أشاروا بأيديهم إلى المستهين وما نطقت به من قولهم: جفّة من ج أي هذا جواننا لكم ليس عندنا غيره، اقتطاعاً لهم من التصديق أو وضعوها على أفواههم يسكتونهم ولا يذرونهم يتكلمون، وقيل: الأيدي، جمع يد وهي النعمة بمعنى الأيدي، أي: رتوا نعم الأنبياء التي هي أجل النعم من مواعظهم ونصائحهم وما أوحى إليهم من الشرائع والآيات في أفواههم، لأنهم إذا كذبوها ولم يقبلوها، فكانهم رتوها في أفواههم ورجعوها إلى حيث جاءت منه على طريق المثل (٤) وقد يجوز أيضاً أن يكون المراد بهذه الكناية كما يقول الشريف الرضي: "أن الكفار كانوا إذا بدأ عليهم الرسل بالكلام سدّوا بأيديهم أسماعهم دفعةً، وأفواههم دفعةً، إظهاراً منهم لقلّة الرغبة في سماع كلامهم وجواب مقالهم، ليذلّوهم بهذا الفعل على أنهم لا يصغون لهم إلى مقال، ولا يجيبونهم عن سؤال، إذ قد أبهموا طريق السماع والجواب، وهما الأذان والأفواه" (٥). وقال بعض المحقّقين "ردّوا أيديهم في أفواههم كما يفعل من يريد تمويه الصوت ليسمع عن بعده، بتحريك كفه أمام فمه وهو يرفع صوته ذهاباً وإياباً فيتموج الصوت ويسمع. يرسم السياق هذه الحركة التي تدل على جهرهم بالكذب والشك وافحاشهم في هذا الجهر، وإثباتهم بهذه الحركة الغليظة التي لا أدب فيها ولا ذوق، إمعاناً منهم في الجهر بالكفر" (٦).

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٩.

(٢) سورة آل عمران، من الآية: ١١٩.

(٣) الكشف: ٢ / ٤٢٢. وينظر: المفردات، ص ٢٨٧.

(٤) تلخيص البيان في مجازات القرآن، ص ١٨٢.

(٥) في ظلال القرآن: ٥ / ١٤٢.

وكل هذه المعاني تُوحى بها الكناية وتتجمع فيها لتشير إلى إمعان هؤلاء بالكذب والكفر وإصرارهم وتصميمهم على مجابهة رسل الله - صلوات الله وسلامه عليهم - بالإيذاء والسخرية منهم، وهذا الإصرار منهم على الكفر والتكذيب يُوحى به الكناية فتصوره على أنه سلوك منهم دائم متكرر لأنه حركة كنائية متكررة، فالفعل (رَدَدَ) الذي بُنيت عليه يُوحى بهذا التكرار، جاء في أساس البلاغة: "رَدَدَ القول: كَرَّرَهُ، ولا خير في القول المردود، وراده القول واجعه إياه" (١)، وقال الراغب في هذه الكناية: "واستعمال الرد في ذلك تنبيهاً أنهم فعلوا ذلك مرة بعد أخرى" (٢) فيتعمق بتكرار هذا الفعل الكنائي ويؤكد المعنى المُكنى عنه الذي يصممهم بالتكذيب والجهر بالكفر وإصرارهم عليه، فنفسهم غليظة كافرة بناسيها التصوير بتلك الحركة الكنائية الغليظة.

جعل الأصابع في الأذان واستغشاء الثياب:

ورئت هاتين الكنيتين في آية واحدة وصفاً لقوم نوح (عليه السلام) وهي قوله تعالى: ﴿وَأَنَّى كُنَّا دَعْوَهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أُصْغَعِمَ فِي أَذَانِهِمْ وَأَسْتَفْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَمْرًا وَأَنْتُمْ كَارُونَ﴾ (٣) نُسبة نلاحظ تواشج الكنيتين بحركتيهما: ﴿جَعَلُوا أُصْغَعِمَ فِي أَذَانِهِمْ﴾ ، ﴿وَأَسْتَفْشَوْا ثِيَابَهُمْ﴾ في تأدية المعنى النفسي المقصود على نحو فني مؤثر.

الكناية الأولى: ﴿جَعَلُوا أُصْغَعِمَ فِي أَذَانِهِمْ﴾ تعبير موحٍ يجسد حالة نفسية لقوم نوح (عليه السلام) بهذه الحركة المادية وهي سد أذانهم بأصابعهم كيلا يسمعوا رسولهم وما يدعوهم إليه من الهدى والنور والمغفرة. وهذا هو المعنى الظاهر الذي تدل عليه هذه الحركة الكنائية البغيضة التي تشي بسوء أديهم وتصرفهم مع نبي الله واستهزائهم به. إلا أن هذا المعنى ليس هو المراد فحسب، وإنما المراد المعنى المُكنى عنه الذي يرتبط بهذه الحركة ويلازمها وهو الحالة النفسية لقومه تجاه الداعي والدعوة؛ وهذه الحالة النفسية تتمثل في تصميمهم على الإعراض وعدم الاستماع إلى ما يدعوهم إليه النبوة. وهذا التصميم في الإعراض عن الاستماع والأشدة في مكابرتهم، يُوحى به بنية الكناية، فهو لم يقل: (يجعلون أناملهم في أذانهم) كما يقتضي التعبير في الظاهر، لأن الأنامل (أطراف الأصابع) هي التي تُجعل في

(١) ص ١٥٩. (رد).

(٢) المفردات، ص ٢٨٠.

(٣) سورة نوح، الآية: ٧. وينظر: سورة البقرة، الآية: ١٩. حيث تتكرر كناية (جعل الأصابع في الأذان). وينظر: سورة هود، الآية: ٥. حيث تتكرر كناية (استغشاء الثياب).

الأذان وليس الأصابع كلها، قال الزمخشري: "فهيلاً قليل أناملهم. قلت: هذا من الاتساعات في اللغة التي لا يكاد الحاصر يحصرها وأيضاً ففي ذكر الأصابع من ذكر المبالغة ما ليس في ذكر الأنامل" (١)، وهذه المبالغة تتمثل في الضغط الشديد بالأصابع على الأذان فتؤحي بذلك الإعراض الشديد وصدودهم وبغضهم للدعوة وكرهتهم لها. وهم إذ قد عطّلوا سمعهم، فإنهم يعملون إلى تغطية أنفسهم بثيابهم حتى لا يروا الداعي، فضلاً عن عدم سماعه إمعاناً في الإعراض والاستكبار، كما تصور ذلك الكناية الثانية ﴿وَأَسْتَفْشَوْا ثِيَابَهُمْ﴾ قال الزمخشري: ﴿وَأَسْتَفْشَوْا ثِيَابَهُمْ﴾ وتغطّوا بها، كأنهم طلبوا أن تغشاهم ثيابهم أو تغشيهم لئلا يبصروه كراهة النظر إلى وجه من ينصحهم في دين الله" (٢)، فهم كارهون للداعي والدعوة سواء، وهم لم يكتفوا بتعطيل أسماعهم، فإنهم قد عطّلوا أبصارهم كما أوحت الكناية، ليس إبصارهم النبي نوح ﷺ ورؤيتهم في أثناء دعوتهم لهم فحسب، وإنما الكناية رامزة ودالة على تعطيل أبصارهم في المعنى الشامل للداعي والدعوة والتفكير فيما يدعوهم إليه، فهم بمنزلة من منع بصره بوصفه وسيلة للادراك والمعرفة. وبذلك تتضافر الكنايتان في التعبير فتصورهم مسلوبي وسائل الإدراك (السمع والبصر) الهادية إلى التفكير والإيمان، قال أبو حيان: "ذلك كناية عن السبالغة في إعراضهم عما دعاهم إليه، فهم بمنزلة من صدّ سمعهم، ومنع بصره" (٣) ﴿وَأَمَرُوا وَأَسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ أي واستمروا على الكفر والطغيان، واستكبروا عن الإيمان استكباراً عظيماً، وفيه إشارة إلى فرط عنادهم، وغلوهم في الضلال (٤).

وإعراض قوم نوح ﷺ وصدودهم الذي صورته الكنايتان بقوتيهما التعبيرية في التصوير الموحى يتعمق بالاستهارة: ﴿وَأَمَرُوا﴾ إذ إن الإصرار على الذنب من إصرار الحمار على العانة كما قال الزمخشري (٥)، فقال في تفسير قوله ﷺ ﴿وَأَمَرُوا﴾: "الإصرار: من أصرّ الحمار على العانة إذا صرّ أذنيه وأقبل عليها يكدّمها ويطردها، استعير للإقبال على المعاصي والاكباب عليها" (٦). والاستعارة موحية بأن قوم نوح ﷺ كالحمير لأنهم

(١) الكشف: ١ / ٢١٧.

(٢) نفسه: ٤ / ٤٩٣.

(٣) البحر المحيط: ٨ / ٣٣٨.

(٤) ينظر: الكشف: ٤ / ٤٩٣.

(٥) أساس البلاغة، ص ٢٥٢ (صرر).

(٦) الكشف: ٤ / ٤٩٣.

عطّلوا وسائل المعرفة، ويقوى هذا أنّ الله ﷻ شبيه أهل النار من الجن والإنس الذين عطّلوا وسائل المعرفة، القلب والعين والأذن، فضلّوا وظلموا بالأدعاء، فقال: ﴿...أُولَئِكَ كَالْأَشْمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْمَقْتُولُونَ﴾ (١).

فدلالة الاستعارة تُوحي بأن قوم نوح أشبه بالحميمير الذين يركضون وراء الأذى لطرقها، فاكبائهم على المعاصي كأكباب الحمار على العانة (٢). وإزاء حال قوم نوح بوصفهم الذي صوّره التصوير الكناي والاستعاري، فإن الكنايتين فيهما إحياء يلح من طرف خفي، هو تصميم النبي نوح ﷺ ومجاهدته في تبليغه الدعوة لقومه في كل فرصة سائحة ووقت، ليوصلها إلى أسماعهم ويواجههم مواجهة تقع عليه أنظارهم رغم إصرارهم الدائم واستكبارهم الثابت.

النبيذ وراء الظهور:

وردت هذه الكناية في موطنين من القرآن مختصة بشأن اليهود مصوّرة لحقيقتهم في إهمالهم البلاغ المبين وطرحه وراء ظهورهم، كما نقرأ من قوله - تعالى -: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَقُوا بِهِ مِنَّا قَلِيلًا فَيَسْأَلُ مَا يَشْعُرُونَ﴾ (٣).

التعبير ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ يصورهم بحال من يطرح الشيء وراء ظهره، وهذا التعبير في حقيقته قائم في بنيته على الاستعارة (النبيذ) وعلى الكناية ﴿وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ فقد تواسجت الاستعارة والكناية في أداء الدلالة التي يهدف إليها القرآن في حركة مصوّرة. قال الشريف الرضي: "والمراد: أنهم غفلوا عن ذكره، وتشاغلوا عن فهمه، يعني الكتاب المنزل عليهم، فكان كالشيء الملقى خلف ظهر الإنسان، لا يراه فيذكره، ولا يلتفت إليه فينظره" (٤). والطرح والترك للشيء ليس فيه معنى (النبيذ)، لأنه لا ينبذ إلا الشيء الحقير التافه الذي لا يُبالي به (٥). فالنبيذ يدل على احتقارهم وسخريتهم وغفلتهم المتعمدة التي فيها استغناء وكرهية لكتاب الله.

(١) سورة الأعراف، من الآية: ١٧٩.

(٢) البني والدلالات في لغة القصص القرآني، ص ٢٦٣.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٨٧. وينظر: سورة البقرة، الآية: ١٠١.

(٤) تلخيص البيان في مجازات القرآن، ص ١٢٦.

(٥) ينظر: الفروق اللغوية، ص ٢٤٥. وينظر: أساس البلاغة، ص ٤٣ (نبيذ).

فالاستعارة (الذيذ) التي عدل إليها القرآن بدلاً من (الترك أو الطرح) مثلاً، هي استعارة نصريحية فيها تشبيه من يترك أو يطرح كتاب الله وراء ظهره احتقاراً له واستهانةً بمن معه شيء فنبذ وراء ظهره، فاستعير المشبه به (المستعار منه) وحذف المشبه (المستعار له) على سبيل الاستعارة النصريحية.

فالاستعارة التي أخرجت المعنى في حركة تصويرية، موحية للنفس أشد الإيحاء ببغض اليهود وكرههم لكتاب الله، ويتصاعد هذا الإيحاء ويتعمق بالكناية ﴿وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ قال الزمخشري: "وراء ظهورهم مثل لتركهم وإعراضهم عنه مثل بما يرمي به وراء الظهر استغناء عنه وقلة التفات إليه" (١)، وتقول العرب: "جعل هذا الأمر وراء ظهره أي تولى عنه معرضاً لأن ما يجعل وراء الظهر لا ينظر إليه، فهو كناية عن الإعراض عن التوراة بالكلية" (٢).

فالكناية تمثيل حسي للإعراض لأن من أعرض عن شيء تجلوزه فخلفه وراء ظهره، وفي اصفية وراء إلى الظهر تأكيد لبعد المتروك بحيث لا يلقاه بعد ذلك، فالظهر تأكيد لمعنى وراء كقول القائل: من وراء وراء (٣) وهذا التصوير الكنائي يدع الخيال يتملى هذه الحالة الزرية الموحية بحماقتهم وغلظتهم وبشاعة تصرفهم، فضلاً عن جحودهم لكتاب الله وحجبه عن الناس.

والكناية فضلاً عن الاستعارة تنمي إحساساً نفسياً في المتلقي وانفعالاً بغضاً بذتاب شعوره ووجدانه تجاه اليهود، لأن الدلالة الإيحائية النفسية فيهما ترتبط بكتاب الله وهو يذبح وراء الظهور، ويعمق هذا الاحساس الاستعارة النصريحية ﴿وَأَشْرَقُوا مِنْهُمَا قَلِيلًا﴾ التي انتهت بها الآية. بالاستعارة ﴿وَأَشْرَقُوا﴾ بدلاً من (استبدلوا) نوحى بأن هؤلاء اليهود لا يكتفون بنبذ كتاب الله وراء ظهورهم سخرية واحتقاراً، وإنما لا يتورعون كذلك على عقد الصفقات التجارية بأيات الله عن عمد وقصد وتجح على الله والناس لينالوا (الثمن القليل) طغياناً منهم وكفراً وزيادة في السخرية وإمعاناً في الاعتداء، فضلاً عن أن التعبير القرآني يُوحى بأن هؤلاء اليهود يرون في كتابهم شيئاً لا قيمة له في حياتهم فيستعنون عنه بالبيع وبأقل ثمن، ولا ريب أن هذه الأفعال تثير أحاسيس وانفعالات في النفس المؤمنة، فهم

(١) الكشف: ١ / ٣٠٠، ٤٨٦.

(٢) صفوة التفاسير: ١ / ٨٤.

(٣) ينظر: تفسير التحرير والتنوير: ١ / ٦٢٦ - الكتاب الثاني -.

ينبذون اليهود في كل مرة، وينبذون كتاب الله وراء ظهورهم، ويشترون به ثمناً قليلاً فبئس ما يفعلون وبئس ما يشترون.

الانقلاب على الأعقاب :

وردت هذه الكناية في سياق يُوحى بالتعليق على المؤمنين فيما كان منهم من الفرار والانصراف عن رسول الله ﷺ من أرض المعركة في أحد، وذلك في قوله - تعالى - : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبِهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ (١).

الكناية التصويرية: ﴿ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ﴾ تصور المعنى النفسي في صورة حسية مؤثرة في النفس، وهي تتملى هذا المشهد الحسي المنظور المتمثل في هذه الحركة العنيفة السريعة في أرض المعركة. والمعنى القريب للكناية هو: الانصراف عن رسول ﷺ والانكشاف عنه في المعركة (٢). قال الراغب: " قلب الشيء: تصريفه وصرفه عن وجهه إلى وجهه كقلب الثوب، وقلب الإنسان، أي صرفه عن طريقته. والاندقلاب: الانصراف " (٣). إلا أن الكناية تدعنا نتخيل حركة عنيفة تتمثل في الانقلاب على الأعقاب في حركة نصف دائرية يميناً وشمالاً فتشير إلى المعنى المكنى عنه بحيوية وقوة تأثير: وهو الحركة النفسية العنيفة في أرض المعركة التي انتابت نفوس المؤمنين وقلوبهم فزلزلتها خوفاً وهلعاً فانقلبوا منهزمين. ويتبدى جمال الكناية فنياً في ادساقها بحركتها العنيفة الغليظة المصورة للهزيمة النفسية مع جو معركة أحد الذي جاءت فيه والتي كان وقعها عنيفاً شديداً على قلوب المؤمنين ونفوسهم.

والكناية ذات بعد شامل في معناها يتجاوز الهزيمة في أرض المعركة إلى معنى الارتداد عن الدين. جاء في التفسير: ﴿ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ﴾ من قبيل المثل تضرب لمن رجع عن الشيء بعد الإقبال عليه والأحسن أن تكون عامة تشمل الارتداد عن الدين الذي جاهر بالدعوة إليه بعض المنافقين، والارتداد عن العمل كالجهد ومكافحة الأعداء وتأييد الحق " (٤). ويتأكد هذا البعد الشامل للكناية حين أحس عدد من المسلمين في معركة أحد أن

(١) سورة آل عمران ، الآية: ١٤٤. وينظر: سورة البقرة ، الآية: ١٤٣.

(٢) ينظر: الكشاف: ١ / ٤٦٨. والمفردات ، ص ٦٢٠.

(٣) المفردات ، ص ٦٢٠.

(٤) المنار: ٤ / ١٦١.

لا جدوى من قتال المشركين، حين هتف الهاتف: أَنْ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ، وظنّوا أن بموته نهاية أمر هذا الدين، ونهاية أمر الجهاد للمشركين. وهذا الهاتف، وما أطلق من أراجيف في أرض المعركة كانت من قول المنافقين.. وارتباب المؤمنين وحركتهم النفسية تجسمها الكناية، فتصورها حركة ارتداد على الأعقاب، كارتدادهم في المعركة على الأعقاب (١).

تنكيس الرؤوس:

تأتي هذه الكناية في موضعين، أحدهما في مشهد من مشاهد يوم القيامة وصفاً لحال المجرمين وهم ناكسو رؤوسهم عند ربهم ﷻ في قوله - تعالى -: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذُ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَانْزِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ (٢). الصورة الكنائية الحركة ﴿نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ﴾ ينطوي تحتها معانٍ وإحاءات فهي تشير إلى خزي المجرمين واعترافهم بالخطيئة والإقرار بالحق الذي جحدوه في حياتهم الدنيا (٣). هي تجسيد للحالة النفسية العصبية في موقفهم هذا، وهي دالة على الذل والانكسار، والندم والخجل مما أجرموا، فيطلبون العودة إلى الأرض لإصلاح ما فات في الحياة الأولى وقد فات الأوان، وهذا الموقف النفسي للمجرمين يعظمه المشهد ويعمقه بحذف جواب (لو)، وذلك ليترك لخيال المتلقي أن يتصوره، ولتذهب فيه نفسه كل مذهب في تقديره، قال الزمخشري: "لو الامتناعية قد حذفت جوابها، وهو: لرايت أمراً فظليماً. أو: لرايت أسوأ حال ترى" (٤)، فحذفه أبلغ من ذكره في وصف حال المجرمين في هذا الموقف العظيم عند ربهم، لأن في ذكر الجواب تضييقاً له وتحديدًا، فهو موقف مروّع عصيب على المجرمين الذين كانت رؤوسهم شامخة في الدنيا لا تسمع قول الحق ولا تيصّر طريق الهدى، فهاهم منكسة رؤوسهم ذلاً وانكساراً، وهم الآن فقط يسمعون ويبدصرون في موقف العذاب والخزي والهوان، والآن يدعون ويستغيثون - حين لا ينفع الدعاء ولا تلجى

(١) ينظر: في ظلال القرآن: ٢ / ٩٤، وينظر: الكشف: ١ / ٤٦٨.

(٢) سورة السجدة، الآية ١٢، وينظر الموضوع الآخر: سورة النساء، الآية ٦٥ في سياق قصة سيننا إبراهيم ﷺ مع قومه.

(٣) ينظر: في ظلال القرآن: ٦ / ٥١٦.

(٤) الكشف: ٣ / ٤٠٣.

الاستغاثة ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا...﴾ أي: "أبصرنا صدق وعدك ووعدك وسمعنا منك تصديق رسلك أو كنا عمياً وصماً فأبصرنا وسمعنا ﴿فَارْجِعْنَا﴾ إلى الدنيا" (١) فهم كانوا عمياً وصماً في الحياة الدنيا كما يشهدون على أنفسهم، فيشتمخون برؤوسهم وينكبرون، لأنهم عطّلوا وسائل المعرفة الذالة إلى الحق والنور والهدى، فمالوا برؤوسهم عن الحق تكبراً وخيلاء، فجاءت الصورة الكنائية لتصوير ذلك الرؤوس مطاطة خاضعة مطرقة ولتدل على جزائهم من جنس عملهم.

ويقدم لنا القرآن نمطاً من هولاء بالمادة الكنائية نفسها، تصور موقفهم في الحياة الدنيا من الإيمان والهدى بعد لزوم الحجة والبيان في قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام مع قومه بعد تكسيره الأصنام، فجادلوه بالباطل لينحضوا به الحق، وذلك في قوله - تعالى -: ﴿قَالُوا أَأَتَتْكَ قُلُوبُ هَٰؤُلَاءِ مِنَ الْمَلٰٓئِكَةِ يُزَيِّدُهُمْ قُوَّةً ۖ قَالُوا بَلْ نَعْمَلُهُمْ كَيْدُكُمْ هَٰذَا فَنَقُولُهُمْ إِن كَانُوا يَنْظُرُونَ ۝ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ۝ ثُمَّ نَكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنْظُرُونَ﴾ (٢).

فالكنائية ﴿نَكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ صورة حركية عنيفة، إذ الانقلاب على الرؤوس، قال الزمخشري: "نكسته: قلبته فجعلت أسفله أعلاه. وانتكس: انقلب" (٣) فهم قد قلبوا على رؤوسهم حقيقة مما يهتهم به إبراهيم عليه السلام، فما أثاروا جواباً إلا ما هو حجة عليهم (٤)، فتشير هذه الحركة إلى ما أدت نفوسهم من خجل وانكسار عند لزوم الحجة، فالحركة الكنائية تصوير لانتكاسهم النفسي بعد أن أذعنوا، استقاموا حين رجعوا إلى أنفسهم وجاءوا بالفكرة الصالحة، ثم انتكسوا وانقلبوا عن تلك الحالة، فأخذوا في المجادلة بالباطل والمكابرة أو انتكسوا عن كونهم مجادلين لإبراهيم عليه السلام مجادلين عنه، حين نفوا عن أصنامهم القدرة على الدطق (٥)، واستقامتهم حين رجعوا إلى أنفسهم تصويره الآية: ﴿فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾. فهم يشهدون على أنفسهم بالظلم بعبادة هذه الأصنام، وهي رجعة إلى الفطرة والاستقامة فيلحقهم من الخضوع والاستكانة والاطراق للحق

(١) نفسه: ٢ / ٤٠٣.

(٢) سورة الأنبياء، الآيات: ٦٢-٦٥.

(٣) الكشف: ٣ / ٩٨. وينظر: أساس البلاغة، ص ٤٧٢-٤٧٣ (نكس).

(٤) الكشف: ٣ / ٩٨. وينظر: تلخيص البيان في مجازات القرآن، ص ٢٣١.

(٥) الكشف: ٣ / ٩٨.

والمنطق الذي مع نبيهم إبراهيم عليه السلام ولكنها رجعة لا تدوم، فانقلبوا منكسرين يجادلون ويكابرون بتلك القوة والشدة التي أوحى بها الكناية في صورتها الحركية القوية العنيفة.

تسوية الأرض بالكافرين :

تجلى هذه الكناية حالة نفسية للكافرين في مشهد من مشاهد يوم القيامة وهو في قوله تعالى :- ﴿يَوْمَ يُدْعَى الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ لَوْ سَوَّىٰ يَوْمَ الْأَرْضُ لَآ يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ (١). ﴿لَوْ سَوَّىٰ يَوْمَ الْأَرْضُ﴾ كناية جاءت بأسلوب التمني بـ ﴿لَوْ﴾ التي يزداد بها التمني بُعداً فتبرز شعور اللفظة اليائس (٢) للكافرين في موقفهم العصيب الذين يتمنون فيه لما يرون من أهواله أن تسوى بهم الأرض فيخففوا عن الأنظار قال الزمخشري: "﴿لَوْ سَوَّىٰ يَوْمَ الْأَرْضُ﴾ لو ينفنون فتسوى بهم الأرض كما تسوى بالموتى، وقيل يودون أنهم لم يبعثوا وأنهم كانوا والأرض سواء، وقول تصير البهائم تراباً فيودون حالها" (٣).

هذا هو المعنى القريب الذي تدل عليه الكناية، أما المعنى المكنى عنه الذي أشارت إليه فضلاً عن شدة الأمر عليهم وهوله فإنه تصوير لحالتهم النفسية المستأنة خجلاً وندامة، وخزياً ومهانة في ساحة العرض بمشهدها العظيم الذي تشهده الرسل والأمم، كما أخبر قبل الكناية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ (٤). فهم مكشوفون في ساحة العرض لا تخفى منهم خافية، والشهيد حاضر يشهد عليهم بما فعلوا وهو نبيهم (٥). فما يصنع هؤلاء الكافرون في هذا الموقف الذي كانوا به لا يؤمنون ؟ إن جمال التعبير الكنائي هنا يتمثل في عمق الظلال النفسية والشعورية التي يجلبها، والمجال الذي يفتحها لتأمل مواطن النفس، وخلجات الحس، في هذا الموقف الذي يقفه الكافرون، والهول النفسي الذي يعانون من خجل وخزي وندامة (٦).

(١) سورة النساء ، الآية: ٤٤.

(٢) ينظر: دلالات التراكيب ، ص ٢١١.

(٣) الكشف: ٥٢٨/١، وينظر: صفوة التفسير: ٢٧٦/١. وينظر: تفسير التحرير والتنوير: ٥٩/٥.

(٤) سورة النساء ، من الآية: ٤١.

(٥) ينظر: الكشف: ٥٢٧ / ١.

(٦) ينظر: مشاهد القيامة في القرآن ، ص ٢٠٧-٢٠٨.

خضوع الأعناق :

وردت هذه الكناية في قوله - تعالى - خطاباً للرسول ﷺ ﴿لَمَّا كَانَ بَيْنَهُمْ الْيَمُّ الْمَوْتَىٰ أَلْقَىٰ الرَّسُولُ سَهْلَ الْغَدَاةِ فِي يَدَيْهِمْ فَكَرَهُهُ الْمُبْرِكُونَ﴾ (١) إن لَمَّا نُزِّلَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَظَلَّتْ أَعْيُنُهُمْ لِمَا خَضِعِينَ (٢)

جاء في التفسير : " .. لعل : للاشفاق ، يعني أشفق على نفسك أن تقتلها حسرة على ما فاتك من اسلام قومك ﴿الْأَيْ كُفُّوا مُؤْمِنِينَ﴾ لنلا يؤمنوا ، أو لامتناع إيمانهم ، أو خيفة أن لا يؤمنوا ، (آية) أزداد : آية ملجئة إلى الإيمان قاصرة عليه .. " (٣)

والكناية ﴿فَظَلَّتْ أَعْيُنُهُمْ لِمَا خَضِعِينَ﴾ ذات تشكيل فني في التعبير عن المعنى المقصود. وقد لاحظ الزمخشري ذلك فقال : " فإن قلت : كيف صح مجيء خاضعين خبراً عن الأعناق قلت : أصل الكلام : فظَلُّوا لها خاضعين ، فلفحمت الأعناق لبيان موضع الخضوع " (٤) وهذا الاحكام للأعناق في الصورة ومجيء ﴿خَضِعِينَ﴾ خبراً عنها ، أعطى الصورة الكنائية حيويتها وقوة تأثيرها صورة ومعنى لتأكيد دلالة القسر والقهر في خضوع أعناقهم كرهاً بآية تقسرهم على الإيمان فسرأفئجلى مذهبها المعنى المكنى عنه المتمثل في ذلهم وهوانهم ، لأن أعناقهم خاضعة لا تستطيع حركة في هبتها التي رسمتها الكناية ، فهم عليها مقيمون ثابتون .

ولا يخفى ما في هذه الصورة الكنائية من دسلبية للرسول ﷺ وتسرية عنه مما كان يعانيه من تكذيب قومه ، وهو يحرص على إيمانهم وهداهم .

بلوغ القلوب الحناجر :

وردت هذه الكناية في موضعين من القرآن ، الأول في سياق معركة (الأحزاب) في قوله - تعالى - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ (١) إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا (٢)

(١) سورة الأحزاب ، الآية ٢٥ : ٣٠

(٢) الكشاف : ٣ / ٢٣٥

(٣) نفسه : ٣ / ٢٣٥

(٤) سورة الأحزاب ، الآية ٩ : ١٠

والموضع الثاني في مشهد من مشاهد يوم القيامة في قوله - تعالى - ﴿ وَأَنذَرْتَهُمْ يَوْمَ
الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظُوبٍ مَّا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حِسْمٍ وَلَا سَفِيحٍ يَطَّاعٌ ﴾ (١).

في الآية الأولى مهدت كنايتان متلازمتان في معناهما لمعنى الكناية ﴿ وَلَقَدْ ﴾
الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرِ ﴿ هـا: ﴿ إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ﴾ و ﴿ وَلَقَدْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ ﴾
، ﴿ إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ﴾ كناية عن إحاطة جيش الأحزاب للمسلمين من كل
جانب، وتمكنهم منهم كل تمكن، وكان جيش الأحزاب بالتصوير الكنائي يتحدرون من فوق
رووس المسلمين، وكان الأرض تنفجر عنهم من تحت أقدامهم (٢)، فالكناية تصوّر كثرتهم،
فهم كالبول يحيط بالمسلمين فيكربهم فيملأ نفوسهم خوفاً ورعباً، وهو المعنى النفسي الذي
تصوره الكناية الثانية في حركة عيونهم وميلانها حيرةً ودهشةً مما ﴿ وَلَقَدْ زَاغَتِ
الْأَبْصَارُ ﴾ قال الزمخشري: " ﴿ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ ﴾ مالت عن ستنها وسمتوى نظرها حيرةً
وشخوصاً. وقيل: عدلت عن كل شيء فلم تلتفت إلا إلى عدوها لشدة الروح (٣)، فالتصوير
الكنائي يتدرج في وصف الحالة النفسية للمسلمين فزيغ الأبصار يمثل أول أحوال الشدة،
فالمكروب المفاجأ يرسل بصره، ويقلب محاجره، يلتفت هنا وهناك دهشاً حائراً، والكناية
﴿ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ ﴾ معبرة عن هذه المعاني، لأن الحيرة والدهش لازمة من لوازمها (٤). ثم
تتصاعد معاني الخوف والاضطراب والفرع التي انتابت نفوسهم بالكناية ﴿ وَلَقَدْ الْقُلُوبُ
الْحَنَاجِرِ ﴾ فهي كناية عن شدة الخوف والفرع، حتى لكان الخوف يتصاعد بالقلب فيعلو به
إلى حيث يقف كما تصوره الكناية، قال الزمخشري: " قالوا: إذا انتفخت الرنة من شدة
الفرع أو الغضب أو الغم الشديد ربت وارتفع القلب بارتقاها إلى رأس الحذجرة " (٥)،
فالكناية من لوازم هذه الأحوال النفسية.

وبذلك يجسد التعبير الكنائي المصور الحالة النفسية الفزع المروبة للمسلمين في
مشهد من مشاهد المواجهة مع أعداء الله والمسلمين.

(١) سورة غافر، الآية: ١٨.

(٢) ينظر: من أسرار التعبير القرآني دراسة تحليلية لسورة الأحزاب، د. محمد أبو موسى، ص ٤٧.

(٣) الكشف: ٣ / ٤١٦.

(٤) ينظر: من أسرار التعبير القرآني، ص ٤٨.

(٥) الكشف: ٣ / ٤١٧. وينظر: الألفاظ النفسية في القرآن الكريم دراسة دلالية، ص ٧٣.

ومما يصور شدة الخوف والفرع التي انتابت المسلمين في هذه المعركة ويعظمها أن الكناية ترد في مشهد مشاهد القيامة، وهي مشاهد عصبية مروعة: ﴿وَأَنذَرَهُمْ يَوْمَ الْأَرْزَاقِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمٍ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حِمِيمٍ وَلَا شَفِيعٌ يُطَاعُ﴾.

ثم نلاحظ القلوب كأنما تفارق مواضعها وتبلغ الحناجر حقاً من شدة الضيق^(١) والكرب بالتصوير الكنائي ﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ﴾ الذي يشير إلى الحالة النفسية للظالمين وما ينتابها من هلع وخوف من شدة الموقف وهوله. إلا أننا نلاحظ تبايناً في التعبير عن المشاهد النفسية وتصويرها على الرغم من استعمال الكناية نفسها مع اختلاف في تركيبها، حيث قال هناك: ﴿وَلَبَّغْتَ الْقُلُوبَ الْحَنَاجِرَ﴾ وقال هنا: ﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ﴾، وكل من التركيبين يناسب المشهد الذي جاء فيه في إيحائه رغم اشتراكهما من حيث الدلالة العامة المكنى عنها والمتمثلة في شدة الخوف والفرع.

فشدة الموقف وهوله في مشهد القيامة أعظم على النفوس والقلوب، إذ نلاحظ الظالمين في أول أهوال الأرزاق قلوبهم لدى الحناجر، ثم هم ﴿كَظِيمٍ﴾ أي كاظمين على قلوبهم لدى الحناجر، أو قلوبهم كاظمة على غم وكرب فيها مع بلوغها الحناجر، كلا المعنيين يحتمله حالهم ﴿كَظِيمٍ﴾^(٢) فالقلوب المكروبة تضغط على الحناجر، وهم كاظمون عاجزون عن

الكلام ليتروخوا، لأن الكظم هو الامساك والحبس^(٣)، وفي ذلك تصعيد للعذاب والغم والضيق، فليس لهم صديق يثبثون له، وينفسون عن صدورهم بالث ما تضيق به، وليس لهم من شفيع ذي كلمة مسموعة يسعى لهم في دفريج الكرب، ورفع الحرج، وهم هنالك بين الضيق والانفراد والاهمال^(٤).

(١) المشاهد في القرآن الكريم، ص ٣٨٣.

(٢) ينظر: الكشف: ٤ / ١٢٢.

(٣) ينظر: لسان العرب: ١٢ / ٥١٩ - ٥٢٠ (كظم).

(٤) مشاهد القيامة في القرآن، ص ١٤١.

شخص الأَبْصَار والأَهْطَاعِ واقْتِنَاعِ الرُّؤُوسِ:

كانت الرؤوس منكسة إلى أسفل في الكناية السابقة، أما هنا فإن رؤوس الظالمين مرفوعة إلى أعلى قصراً كما تُصورها الكنايات الثلاث المتتابعة في هذا المشهد من مشاهد يوم القيامة في قوله - تعالى -: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِيلاً عَمَّا يَفْعَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ ^(١) **مُطَهِّمَاتٍ مُقْنِي رُؤُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ مُطَهِّمَةٌ وَأَقْدَمَهُمْ هَوَاءً** ^(٢) تضافرت ثلاث كنايات في تصوير الحالة النفسية للظالمين في هذا الموقف العصيب، ويمكن تتبع حالهم مشهداً مشهداً حتى تكتمل الصورة الكلية في أداء المعنى المقصود.

الظالمون مؤخرون إلى اليوم الذي هم فيه موعدون: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ فهو يوم رهيب تكون فيه أبصار الظالمين شاحصة، أي: "تظل مفتوحة مبهوثة لا تطرف ولا تتحرك" ^(٣)، وذلك كناية عن شدة الخوف والهلع الذي يأخذ أنفسهم فهم ذاهلون، ويتعمق هذا الذهول من الخوف بكنائتي (الأهطاع واقناع الرؤوس): **﴿مُطَهِّمَاتٍ مُقْنِي رُؤُوسِهِمْ﴾** مهطعين: أي ساقطين سريعاً سادي أعناقهم، وهي مشية المذعور غير ملتفتين إلى شيء ^(٤) وقال الراغب: "هطع الرجل يهطعه إذا صوبه. وبغير مهطع: إذا صوب عنقه" ^(٥) فهم قد مَدَّوا أعناقهم إلى الداعي مسرعين يقادون كما تُقَادُ الدواب من أعناقها، ورؤوسهم مرفوعة إلى أعلى كما دَلَّتْ الكناية **﴿مُقْنِي رُؤُوسِهِمْ﴾** أي: "رافعها" ^(٦) في معناها الظاهر، ومن وراء الكنايتين (الأهطاع واقناع الرؤوس) نلمح المعنى المكنى عنه في مشهد الخوف والهلع هو السخرية من هؤلاء الظالمين، فهم كالنواب يقادون لا كرامة لهم، وهم مرفوعة رؤوسهم على أعلى قسراً ومهالةً، فهم كانوا في حياتهم الدنيا لا يقادون للحق ولا يستجيبون، وعطلوا إحساسهم ووعيهم بالنور والهدى، وهم في مشهدهم هذا كما تعمقه الآية وتؤكد: **﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ مُطَهِّمَةٌ﴾** أي: "لا يرجع إليهم أن يظرفوا

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٤٢. ٤٣. وينتظر: سورة الأنبياء، الآية: ٩٧. في كناية (شخص الأَبْصَار). وسورة القمر: ٨، وسورة المعارج، الآية: ٣٦. في كناية **﴿مُطَهِّمَاتٍ﴾**.
(٢) صفوة التفسير: ١٠١ / ٢.
(٣) ينظر: تفسير التحرير والتنوير: ١٧٧ / ٧. وينظر: الكشاف: ٤٣٨ / ٤.
(٤) المفردات، ص ٧٩١.
(٥) الكشاف: ٤٣٨ / ٤.

يعيونهم، أي: لا يظرقون، ولكن عيونهم مفتوحة ممدودة من غير تحريك للأجفان أو لا يرجع إليهم نظرهم فينظروا إلى أنفسهم " (١) فهم لا حسن لهم ولا وعي ﴿وَأَفْتَدَتْهُمْ هَوَاءٌ﴾ بهذه الصورة التشبيهية البلاغية حيث شبه قلوبهم بالهواء ففراغها، قال الشريف الرضي: " أفندتهم لا تعي شيئاً، للرعب الذي دخلها، والهول الذي استولى عليها " (٢)، قلوبهم خالية من العقل لشدة الفزع (٣) فهي هواء خواء.

والآية بمجملها بما فيها من طواهر بلاغية كناية وتشبيه توصل إلى الحس مشهد الفزع والخوف والهلع الذي يأخذ الظالمين، فهم خلون من كل وعي وإدراك، فضلاً عن السخرية بهم والذل الذي يصيبهم، فهم مرفوعو الرؤوس قسراً، يُقَادُون كالدواب المشدودة لا تلتفت أعينهم إلى شيء ولا تنظر من هول ما يرون فهم ذاهلون.

خشوع الأبصار:

تورد هذه الكناية في مشاهد يوم القيامة وصفاً لحال الكافرين من ذلك قوله - تعالى -: ﴿خُشَعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَذْهَانِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ۚ مَهْطُوعِينَ إِلَىٰ السَّعِيرِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۝﴾ (٤).

الكناية: ﴿خُشَعًا أَبْصَرُهُمْ﴾ تصور حال الكافرين عند بعثهم من قبورهم. جاء في أساس البلاغة: " وخشعت دونه الأبصار، وخشع بصره: غضه " (٥)، فهم يغضون أبصارهم عند خروجهم من الأحداث لا يرفعونها إلى شيء، وذلك كناية عن ذلهم وهوانهم، قال الرمذشري: " وخشوع الأبصار: كناية عن الذلة والاذخال. لأن ذلة الدليل وعزة العزيز تظهران في عيونهما " (٦)، فالحالة النفسية لهم تتجسد في عيونهم فهي خاشعة ذليلة، ثم تُلقي الصورة التشبيهية لتضيف ملمحاً جديداً وتزيد الصورة توضيحاً وتقريباً إلى الأذهان، فقد شبه خروجهم من القبور بالجراد المنتشر، وفي هذا إحياء الكثرة، فهم يخرجون جموعاً منتشرة هنا وهناك، قال الرمذشري: " الجراد مثل في الكثرة والتموج. يُقال في الجيش الكثير المائج بعضه في بعض: جاعوا كالجراد منتشر في كل مكان لكثرته " (٧).

(١) الكشف: ٤٣٨ / ٢. وينظر: التعبير القرآني والبيئة العربية، ص ١٣٣.

(٢) تلخيص البيان في مجازات القرآن، ص ١٨٥.

(٣) صفوة التفسير: ١٠٢ / ٢.

(٤) سورة القمر، الآية: ٧. وينظر: سورة القلم، الآية ٤٣. وسورة المعارج، الآية: ١٤.

وسورة الفازعات، الآية: ٩.

(٥) ص، ١١١، مادة (خشع).

(٦) الكشف: ٣٤٤ / ٤. وينظر: تفسير التحرير والتنوير: ١٧٧ / ٢٧.

(١) وهم على كثرتهم وتماوجهم وانتشارهم في كل مكان حيارى فرعين (٢)، يستنكر بعضهم ببعض من شدة الخوف، مسرعين ساذي أعناقهم إلى الداعي ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى النَّارِ﴾ في صورتهم الذليلة الخاشعة، يدعوهم لأمر غريب شديد ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَرِيرٌ﴾ ولا يوصف اليوم بالعسر، وإنما هم أنفسهم في عسر وضيق وكرب، فهو قول من أثر ما في نفوسهم من خوف وشدة، فهو مجاز عقلي باعتبار كونه يوماً لأمر عسرة شديدة من شدة الحساب وانتظار العذاب (٣).

الزلق بالابصار:

نقرأ هذه الكناية في قوله - تعالى -: ﴿وَلَنْ يَكْذِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِبَرْئَتِكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَنَسْمَعُ الزَّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ وما هو إلا ذكر للعينين (٤).

الكناية: ﴿لِبَرْئَتِكَ بِأَبْصَرِهِمْ﴾ تعبير عن الحالة النفسية للكافرين تجاه الرسول ﷺ تتبعث من خلال حركة العين المخدقة في نظرها شراً عداوة وبغضاء، وهي نظرات في شدتها وقوة تأثيرها تكاد قدم الرسول ﷺ يزل منها كما تصور الكناية، قال الزمخشري: "يعني: أنهم من شدة تحديقهم ونظرهم إليك شراً يعيون العداوة والبغضاء، يكادون يزلون قدمك أو يهلكونك، من قولهم: نظر إليّ نظراً يكاد يصرعني، ويكاد ياكلني، أي: لو أمكنه بتطوره الصرع أو الأكل لفعله" (٥)، وذلك لا يكون إلا نظر المدق والايغاض، وعند النزاع والخصام (٦).

فالكناية تجسد الحالة النفسية للكافرين من خلال حركة عيونهم بتحديق النظر بشدة، وهي حركة قبيحة تشير إلى تلك النفوس الممثلة عداوة وبغضاء وحقدًا وحسدًا. ولا تكفيهم تلك النظرات المسمومة في التعبير عن مشاعرهم وانفعالاتهم، بل يرافقها السب والشتم

(١) نفسه: ٤ / ٣٤٤.

(٢) ينظر: التشبيبات القرآنية والبيئة العربية، واجدة مجيد الأطرقي، ص ٢٠٣. وينظر: التعبير القرآنية والبيئة العربية، ص ١١١.

(٣) ينظر: تفسير التحرير والتنوير: ٢٧ / ١٧٧-١٧٨.

(٤) سورة القلم، الآية: ٥١-٥٢.

(٥) الكشف: ٤ / ٤٧٨. وينظر: تلخيص البيان في مجازات القرآن، ص ٣٤٣.

(٦) تلخيص البيان في مجازات القرآن، ص ٣٤٣.

البيضاء للنيل من الرسول ﷺ ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ يقولون ذلك " حيرة في أمره وتنفيراً، والآن فقد علموا أنه أعقلهم " (١)، لأن الذكر الحكيم لا يقوله مجنون، ولا يحمله مجنون (٢). فهي نفوس معاندة وقلوب منكبرة، فضلاً عن العداوة والبغضاء والحق والحسد.

الازدراء بالعين:

تنوع الدلالات النفسية التي تجسدها الكناية المبذبة على حركة العين، فإذا كانت الكناية السابقة جسدت بحركتها مشاعر العداوة والبغضاء والحق والحسد.. فإن هذه الكناية (الازدراء بالعين) تجسد مشاعر نفسية جديدة تنبعث من قلوب الكافرين ونفوسهم تجاه الذين آمنوا بالله ورسوله ﷺ وذلك في قوله - تعالى - على لسان نوح مخاطباً قومه: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِزًّا خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٣).

الكناية: ﴿تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ﴾ والازدراء: افتعال من زرى عليه إذا غابه، وأزرى به: قصر به، يقال: أزدرته عينه، واقتحصته عينه (٤)، وقال الشريف الرضي في هذه الكناية: " كما يقول القائل: اقتحمت فلاناً عيني، واحتقره طرفي. إذا قبح في منظر عينه خلقة، وصغر دمامه " (٥).

فالكناية حركة عين ذميمة تجسد الحالة النفسية للكافرين تجاه المؤمنين تتمثل في احتقارهم واستصغارهم والاستهانة بهم، في حالة نفسية تسترذل المؤمنين على نحو قبيح فهي نفوس تزن الأمور بمقاييس الكفر والضلال.

قرة العين:

تكشف هذه الكناية الحالة النفسية الراضية المطمئنة خلاف ما أدته الكنایتان السابقتان من مشاعر وانفعالات تجاه المؤمنين.. وبذلك تكون الكناية بحركة العين وسيلة تعبيرية مهمة في التعبير عن الحالات النفسية المتباينة.. وقد وردت هذه الكناية في عدة مواضع،

(١) الكشف: ٤ / ٤٧٨.
(٢) ينظر: في ظلال القرآن: ٨ / ٢٤٣.
(٣) سورة هود، الآية: ٣١.
(٤) الكشف: ٢ / ٣٠٥. وينظر: أساس البلاغة، ص ١٢٠ (زري).
(٥) تلخيص البيان في مجازات القرآن، ص ١٦٠.

منها قوله - تعالى - ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْ لَنَا كُنُوزًا كَثِيرًا قُدْرَةً عَلَى الْأَشْيَاءِ ۖ فَاكْفُرْنَا ۚ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْ لَنَا كُنُوزًا كَثِيرًا قُدْرَةً عَلَى الْأَشْيَاءِ ۖ فَاكْفُرْنَا ۚ ﴾ (١)

الكناية: ﴿ قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ في سياق دعاء عباد الرحمن ربهم أن يكون أزواجهم وذرياتهم طالعين لله تقرّ بهم أعينهم، كما صوّرت الكناية بحركتها الجميلة الوداعة ﴿ قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ أي " أجعل لنا في الأزواج والبنين مسرة وفرحاً بالتمسك بطاعتك والعمل بمرضاتك " (٢) فالكناية تعبير عن حالتهم الشعورية المتمثلة في الفرحة والمسرة (٣) وفي الكناية إحياء القرار النفسي، قال الراغب في هذه الكناية: " وقيل هو من القرار. والمعنى اعطاء الله ما تسكن به عينه فلا يطمح إلى غيره " (٤) فنفسهم مطمئنة مستقرة وهم يرون القدوة الطيبة من أصلابهم يتقون الله ويخافونه فهي الأمدية التي يطمح إليها عباد الرحمن، فالكناية تعبير عن هذا الشعور الفطري الإيماني العميق الذي يستقر في نفوس المتقين وقلوبهم، شعور الرغبة أن تعقبهم ذرية تسير على نهجهم، وأن تكون لهم أزواج من نوعهم، فتقرّ بهم النفوس، وتطمئن بهم القلوب.. والرغبة في أن يحس المؤمن أنه قدوة للخير، يُلتَمّ به الراغبون في الله المتقون ﴿ وَاجْعَلْ لَنَا كُنُوزًا كَثِيرًا قُدْرَةً عَلَى الْأَشْيَاءِ ۖ فَاكْفُرْنَا ۚ ﴾ وليس في هذا من أثر ولا استعلاء فالركب كله يحذوه الإيمان والتقوى (٥)

ومما سبق من كليات نفسية يتبين أنها تعتمد على حركات حسية متباينة في تجسيد الحالات النفسية، إذ تظهر بالتصوير الحسي الحركي دخائل الذقوس والمشاعر الباطنة والانفعالات النفسية المتباينة، سواء كانت الحركة الكنائية باليد أم القدم أم العين أم الرأس أم غير ذلك من أعضاء جسم الإنسان، وهذه الحركة الكنائية ليست مقصودة لذاتها، وإنما هي وسيلة تعبيرية نابضة بالحياة تشير إلى دلالاتها النفسية المتباينة فتجسدها في صور حركية مرئية يتملأها الحس والوجدان، ومن ثم يكون تأثيرها في النفس والذهن أعمق مما لو جاءت في تعبيرات ذهنية مجردة.

- (١) سورة الفرقان، الآية ٧٤. وينظر: السور الآتية: مريم، الآية: ٢٦. طه، الآية: ٤٠. القصص، الآية: ٩. الأيتان: ١٣. السجدة، الآية: ١٧. الأحزاب، الآية: ٥١.
- (٢) صفوة التفاسير: ٣٧٢ / ٢.
- (٣) ينظر: المصدر نفسه: ٣٧١ / ٢.
- (٤) المفردات، ص ٦٠١.
- (٥) ينظر: في ظلال القرآن: ١٨٧ / ٦.